

جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي بين التقليد والتجديد

د. سلمان بن محمد بن حسن القرني

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية

كلية العلوم والآداب بالمخوة في جامعة الباحة

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الوقوف مع مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، ويحاول استقراء معايير تلك الجمالية، حيث انطوت الدراسة على مقايسة المحدثين لمساحة التقليد والتجديد عند الرافعي، ثم تحديد معايير جمالية المفردة القرآنية عنده، وقد أثيرت أسئلة البحث؛ كيف ناقش الرافعي تلك المعايير، وما مدى تجديده في آرائه، وما هي مساحة تقليده لسابقه، وقد أجاب البحث على هذه الأسئلة، ثم حُتم بجملة من النتائج التي انتهت إليها الدراسة.

الكلمات المفتاحية: جمالية؛ المفردة القرآنية؛ الرافعي؛ التقليد؛ التجديد.

The Aesthetic of Qur'anic Term for Al-Rafei between Initiation and Renewing

Dr. Salman bin Mohammed Hassan Al-Qarni

Assistant Professor of Rhetoric and Criticism, Department of Arabic Language

Faculty of Science and Arts at Albaha University

Abstract:

The study aims at interpreting Mahmoud Mustafa Al-Rafie in his book "Inimitability of Koraan and Sonnah". It tries to read the criterions os such aesthetics. The study includes the renewers' assay of the space of initiation and renewing in Al-Rafei, then specifying the criterions of the Koraanic term aesthetic for him. The questions of the study raise how Al-Rafei studied such criterions, the limits of his opinions renewing, and the space of his imitation of his predecessors. The study answered such questions and gave some conclusions.

Keywords: The Aesthetic, Qur'anic Term, Al-Rafei, Initiation, Renewing.

مقدمة:

تعدُّ قضية الإعجاز القرآني النواة الأولى للبلاغة العربية في أطوارها المختلفة نشأةً ونموًا وازدهارًا، ومن ثم نالت البلاغة القرآنية عناية وإجلالاً عند العلماء المسلمين، وشغلت حيزًا كبيرًا من دراساتهم.

والأديب العالم والناقد الدؤابة مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - واحد من أفذاذ العلماء العرب والمسلمين في عصرنا الحديث الذين أسهموا بنصيب كبير حول قضية الإعجاز القرآني، وحسب المرء أن يعود إلى كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ليعرف مبلغ ثقافته، ومدى قدرته على سبر أغوار البيان، وكشف أسراره.

وكان من ضمن ما عالجته من مباحث في هذا الكتاب مبحث بعنوان: (الكلمات وحروفها)، ناقش فيه جملة من السمات المعيارية لجمالية المفردة القرآنية.

ويمكن رسم الخطوط العريضة التي اختطها الرافعي واتخذها معايير لجمالية المفردة القرآنية وفردة تميزها وذلك من خلال سرد هذه المعايير الآتية:

١/ لا حشو ولا زيادة في القرآن الكريم.

٢/ تمهيد السياق لاستعداد الألفاظ.

٣/ إثارة جمع اللفظة أو مفردها نشداناً للفصاحة.

٤/ الجدة في إخراج معنى اللفظ المبتدل.

٥/ مزية النظم في الأسماء الجمادة.

وسيقف البحث عند كل معيار من هذه المعايير التي ذكرها الرافعي للكشف عن طرائقه في معالجته لها.

وعليه فالبحت يولي اهتمامه مناقشة الرافعي في معايير الجمالية، وقياس تجديده وتقليده فيما يطرحه فيها من آراء.

ثم إن البحث - في جملته - يسعى للإجابة على سؤالين مهمين، هما:

١- ما معايير جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي؟.

٢- ما مساحة التقليد والتجديد في معالجة الرافعي لتلك المعايير؟.

ولا ريب في أن مفاتشة إرث العلماء تهديك إلى معرفة أصل تلك الآراء، ومنبعها الأول الذي نبعت منه، وهي في الوقت نفسه تنبئ عن ثنائية التأثير والتأثير في رحلة العلوم في صدور العلماء وإرثهم المجيد.

إنَّ العودة بالآراء العلمية إلى قائلها من تأصيل العلم وأساسه، فإنه كان "يقال: من بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله".^(١)

ولعل هذه الدراسة التي تركز على معالجة الرافعي

(١) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (٦٧١ هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م (١٣).

ومعاييرها، د. عبدالكريم الخطيب^(٣).

٤- الظاهرة الجمالية في القرآن، نذير حمدان^(٤).

بيد أن دراستي هذه لها خصوصتها عن تلك الدراسات، من حيث إنها تكشف عن المعايير الجمالية للمفردة القرآنية عند الرافعي، ومن حيث إنها تنقّب عن مصادر آرائه؛ لمعرفة ما له وما لغيره، وبالتالي معرفة منزلته على مدرجة علماء البيان العلمي.

المنهج: اقتضت طبيعة المادة مناط الدراسة أن أسلك بها منهج الوصف والتحليل الذي من شأنه أن يضيء مسالك المادة المبحوثة ويفاتش ما فيها.

خطة البحث:

يحتوي البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفق هذا التصور الآتي:

مقدمة:

في أهمية الموضوع وملاحه الإجمالية، وسرد معايير الرافعي لجمالية المفردة القرآنية، وأسئلة البحث، والدراسات السابقة، والمنهج، والخطة.

تمهيد: وفيه مطلبان:

الأول: التعريف بالرافعي بإيجاز

الثاني: الرافعي وإعجاز القرآن

لجمالية المفردة القرآنية تضيء مسلكاً من مسالك الرافعي في سائر كتابه، فتفتح نافذةً لبحثٍ منهجيه متكاملًا، و بصفة أشمل وأوسع.

الدراسات السابقة:

مع تعدد الدراسات التي تناولت الرافعي غير أني لم أعتز على دراسة أفردت هذا الموضوع بالبحث، واختصت بمناقشة معايير جمالية المفردة القرآنية عنده، وركزت على ثنائية التأثير والتأثير، والتقليد والتجديد لديه، ومن هنا سعى هذا البحث لإضاءة هذه الجوانب في معالجة الرافعي لبلاغة المفردة القرآنية.

وهناك دراسات متنوعة تكلمت عن الرافعي وجهوده في الإعجاز القرآني بصفة عامة، ومما وقفت عليه منها:

١- جماليات المفردة القرآنية د. أحمد ياسوف^(١).

٢- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم المطعني^(٢).

٣- إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية

(٣) إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، د. عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٤ م.

(٤) الظاهرة الجمالية في القرآن، نذير حمدان، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

(١) جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني (١٤٢٩ هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

والبلاغة النبوية، تحت راية القرآن، رسائل الاحزان، على السفود رد على العقاد، وحي القلم، ديوان النظرات، السحاب الأحمر في فلسفة الحب والجمال، حديث القمر، المعركة في الرد على كتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي، المساكين، أوراق الورد .

ولمحمد سعيد العريان كتاب (حياة الرافعي) ، ولحمود أبي رية: (رسائل الرافعي) وهي رسائل خاصة، مما كان يبعث به إليه، اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجاهلها.

والرافعي من مواليد العقود الأخيرة، مثله في ذلك مثل بقية الرواد النابحين من مفكري القرن العشرين و شعرائه وكتّابه، وقد تقدم صفوفهم بإنتاجه الوفير في فروع الآداب و العلوم الإسلامية، فكان في مقدمة المفكرين، و على رأس الكاتبين والمؤلفين.

وقد خاض الرافعي معارك شرسة في سبيل الحفاظ على اللغة العربية و التراث الإسلامي، كانت أشهرها معاركه مع طه حسين حول كتاب الشعر الجاهلي، ومعاركه مع العقاد، وكانت بدايتها نقد العقاد لكتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

يعد الرافعي صاحب منهج وأسلوب في الكتابة العربية، فهو في كتابته يحافظ على اللغة العربية في نقاء أسلوبها وبلاغتها، بحيث صار يلقب بصاحب الجملة القرآنية، لأصالة بنية

المبحث الأول: تقليد الرافعي وتجديده في ميزان المحدثين

المبحث الثاني: معايير جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

ومن الله أستمد العون والرشاد، والتوفيق والسداد، والحمد لله أولاً وآخراً.

تهويد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالرافعي بإيجاز^(١)

مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب، أصله من طرابلس الشام، ومولده في بلدة (بهميم) في (١٢٩٨هـ = ١٨٨١م) في ريف مصر بمحافظة القليوبية، بمنزل والد أمه، ووفاته في طنطا، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، شعره نقي الديباجة، على جفاف في أكثره، ونثره من الطراز الاول.

من تراثه العلمي:

ديوان شعر، تاريخ آداب العرب، إعجاز القرآن

(١) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة أيار (مايو) ١٩٨٠، (٢٣٥/٧). المعارك الأدبية، أحمد أنور سيد أحمد الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٨٣، (٤٢٧).

في إعجازه، تجدد ذلك فيما كتبه المتقدمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن، إذ عمدوا إلى أمثلة من القرآن الكريم فدرسوها وأفردوها في أبواب، ثم ضمنوها شيئاً من أقوال العرب شعراً ونثراً، فالحال في ذلك كما قال الرافعي: "إن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم"^(٢).

ولقد مضى الرافعي يبحث عن الدلائل التي جعلت هذا الكتاب الكريم معجزاً، وأخذ الرافعي يفتش في سر جمال النظم القرآني، مستفيداً من آراء سابقه، مطلقاً عنان فكره للبحث عن الجديد.

لما كان الرافعي موقفاً بأن بيان القرآن فوق كل بيان أخذ يبحث في أسرار جماله، ودلائل إعجازه، تلك التي جعلت العرب - على ما هم عليه من فصاحة ولسّن - حيارى ذاهلين أمام بيان القرآن وروعته، لا يجيرون جواباً إلا أن يظنوا بهذا الذي تنزل عليه أنه مجنون أو شاعر أو كاهن، وحاشاه ﷺ، فإنهم "لما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملته، ألحاناً لغوية رائعة؛ كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يُفْتَهُم هذا

جملته، واستقامة ألفاظها. أما موضوعات كتابته فمتعددة ومتنوعة وإن غلب عليها الدفاع عن العقيدة الإسلامية واللغة العربية.

والرافعي فوق ذلك يعد من شعراء عصره، وأحد رواد الشعر الوطني، فهو ناظم أجمل الأناشيد الوطنية المصرية، ومنها النشيد المعروف الذي كان النشيد الوطني لمصر، ومطلعه:

اسلمي يا مصرُ إني للفدا

ذي يدي أن مدت الدنيا يدا
يقول عنه مُجد سعيد العريان: "لقد عاش الرافعي الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها، فما أدّت له في حياته واجباً ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأي... لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا، أو موضع السخط والغضب، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه"^(١).

توفي الرافعي عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م، عن عمر يناهز السابعة والخمسين، رحمه الله رحمة واسعة.

المطلب الثاني: الرافعي وإعجاز القرآن

نشأت البلاغة العربية - حينما نشأت - وهي تتلمس جماليات الخطاب القرآني وتبحث

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي

(١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة،

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، (٢٥٧).

(١) حياة الرافعي، مُجد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى،

القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٥ هـ، ١٩٥٥ م، (١٥).

والذي يهمننا في هذه الدراسة هو المحور الثاني
(الكلمات وحروفها).

بدأ حديثه في مبحث (الكلمات وحروفها)
مقررًا أن الكلمة في الحقيقة إنما هي صوت النفس؛
لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه
المناسبة قد لحظته النفس فيها من أصل الوضع.

و(صوت النفس) تفسره مقولة الأعرابي الذي
سئل: "ما هذه البلاغة التي فيكم؟". فقال: شيء
تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا"^(٢)، فما
جيشان الصدر إلا صوت النفس الذي يُقذف على
اللسان، فتكون البلاغة.

واتخذ الراجعي من هذا التمهيدي مسرّبًا
للحديث عن جماليات المفردة القرآنية،
واهتدى إلى أن السر الجمالي للأسلوب
القرآني إنما يبدأ بالكلمة المفردة.

المبحث الأول:

تقليد الراجعي وتجديده في ميزان المحدثين

إذا كان هذا البحث الذي نحن فيه
يتمركز حول نقاط جزئية من دراسة
كلية، وهي معايير جمالية اللفظة القرآنية
عند الراجعي؛ فإنه - بلا شك - يسفر
عن جوانب من جهوده في كتابه بصفة
عامة، ولذا فإن حديث المحدثين عن

(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
(٢٥٥هـ)، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت،
الطبعة الأولى، ١٩٦٨، (١/٦٦).

وإنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في
عجزهم"^(١).

والراجعي - وهو يقول بالنظم - يُقرُّ بأنه ليس أول
من حمل لواءه، ونهَرَ ماءه، فهو يدرك أنه مسبوق
إلى هذا القول، غير أن هذا السبق لم يمنعه من تناول
الفكرة من زاوية بكر، ومن حيث يهدي إليه تذوقه
وإدراكه لمعالم جمال النظم القرآني المعجز.

وإذا كان الإمام عبد القاهر - رحمه الله - قد
تكلم عن النظم بنظرة شاملة؛ فلقد كانت نظرة
الراجعي إلى النظم أدق وأشمل، حيث نظر مبتدئًا من
الحروف وأصواتها، وما قد تدل عليه هذه الحروف
ذاتها، ثم انتقل منها إلى الكلمات وحروفها، ثم إلى
الجملة وكلماتها، ليصل من وراء ذلك كله إلى
فردة نظم القرآن الكريم وتميزه.

وبهذا فقد قامت دراسته على ثلاثة محاور:

١- الحروف وأصواتها

٢- الكلمات وحروفها

٣- الجملة وكلماتها

ومن هذه الرؤية بدأ الراجعي في شرح حقيقة
الإعجاز القرآني من وجهة نظره، وبالشكل الذي
حدد به طريقته، متميزًا عن طرائق السابقين الذين
رأوا في النظم - بشكل عام - سر الإعجاز.

ومن هنا عالج الراجعي فكرة النظم القرآني موقفًا
أن له فيها رؤية خاصة، هي أدق وأشمل مما كان
يراه عبد القاهر.

(١) السابق (٢١٤).

واحد مقرر من أصول البلاغة"^(١).

ولم تسلم شواهد الرافعي التي أوردها من تعقب العقاد حيث يقول: "... وأنه لما بدأ بالاستشهاد في فصل الحروف، ونغماتها الموسيقية، وموقع كل حرف بجانب ما تقدمه وما يليه، كأنَّ بلاغة القرآن معلقة على هذا المعنى، تثبت بثبوتها، وتدحض بإدحاضه"^(٢).

وقد تولى الرافعي الرد على العقاد فقال: "... وهذا التعسف العجيب هو مما أخذ فيه بعض حديثي معه دون بعضه فإني قلت له: إنَّ لهذا الكتاب تكملة أسأل الله أن يعينني عليها ويوفقي لها، فإني أريد أن أكتب (أسرار الإعجاز) استخراج فيه من آيات القرآن آيةً آيةً وبلاغة بلاغة، وقلت له: إني أشرت إلى ذلك في تعليقي على مقدمة الكتاب، كما نهت إليه في الكتاب نفسه، لأني الآن أضع القواعد وأضبط الأصول، ثم للسط والأمثلة موضع؛ فأغفل صاحبنا كل هذا، وجاء يأخذ مني الذي يرد به عليّ، أما الذي هو ردُّ عليه فيطوى دونه"^(٣).

وأنت ترى أن العقاد قد أبعد النُّجعة فيما ذكر، فإذا كنا نُسلِّم له بقلّة شواهد الرافعي التطبيقية إذا ما قيست بحجم كتابه؛ فإنه كذلك يورد مجموعة مناسبة من تلك

جهود الرافعي يشمل الجزء الذي نحن فيه، والكل الذي نحن منه.

لقد تناول المحدثون الرافعي ودراسته في إعجاز القرآن، واختلفت وجهات نظرهم في تقييم عمل الرافعي، ومدى جدته فيما طرح، وإذا كان الرافعي لم يسلم من شغب بعض المحدثين فإن الأعم الأغلب قدّر له ما قدّم من طرح.

ولسنا هنا بصدد سرد آراء المحدثين واستقصائها كلها، بقدر ما يهمنا أن نفتح نافذة نطل من خلالها على أبرز مقولات القوم في جهود الرافعي.

نفتتح آراء المحدثين بالعقاد وهو ممن نازل الرافعي في معارك أدبية ثار بينهما غبارها، وكان قد أخذ على الرافعي عدم إيراد شواهد قرآنية على بلاغة القرآن، حين يقول: "إنه كتاب في إعجاز القرآن، وليس فيه شاهد واحد على معجزات الكلام، ولا هو نَهَج فيه ذلك المنهج الذي أحسن فيه الجرجاني أيما إحسان، وأفاد به الأدب العربية أيما إفادة، فإنما الثناء على القرآن في كتاب تناهز صفحاته الأربعمئة حسنة طيبة يكتب للرافعي أجرها وثوابها عند الله، ولكنها لا تكتب له في سجل المباحث والعلوم، ولا تعد من حسنات التفكير ويعول الاستقلال بما تاذ الرافعي مما نقول؟ إذن ليرجع إلى كتابه، وليذكر أنه عبّر أكثر من مائتي صفحة لا يكاد يلم بشاهد واحد من آية قرآنية، أو أصل

(١) ساعات بين الكتب، عباس محمود العقاد، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤ م، (٢٣).

(٢) السابق الصفحة نفسها.

(٣) مقالات الرافعي المجهولة في اللغة والأدب، د. وليد عبد الماجد كساب، كتاب المجلة العربية (٢٤٢)، الرياض،

١٤٣٧ هـ، (٩٩).

الشواهد، صالحة لما سيقَّت له من معايير.

كما بيَّن الرافعي وجهته في كتابه إذ يقول: "وبهذا الذي قدمناه ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقص في أمثلته لأنه أمر مطرد تعرف أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع"^(١).

ثم إنه لم يعلِّق بلاغة القرآن كلها على ما أورده العقاد، بل إنه قدَّر لكل موضع قدره من مزية خاصة به في سياقه ومساقه، وتعدد المعايير التي ساقها واختلافها تدحض حجة العقاد هذه.

كما تعد دراسة عبد الكريم الخطيب من أوسع الدراسات التي تناولت جهود الرافعي، وكان الخطيب قد أفرد مساحة لهذا الحديث في كتابه (إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها).

يفتح بقوله: "رحم الله مصطفى صادق الرافعي لقد كان من أول من دخل هذه الحلقة من أبناء هذا العصر، وأفسح له مكاناً مع رجالها من علماء السلف في هذه الأمة، فلقد كادت هذه السلسلة تنقطع، وكاد العصر ينقضي، دون أن يقوم فيه رجل يحمل الراية في هذا الميدان، ويؤدي حقه الذي له على كل جيل من أجيال المسلمين"^(٢).

وأنت ترى الخطيب يثني على الرافعي، ويشهد له أنه

اتخذ لنفسه مكاناً بين علماء السلف.

غير أنه يعود ليقول: "وليس من شك في أن الرافعي قد أفاد كثيراً من أولئك الرواد الذين سبقوه إلى هذا المطلب الكريم"^(٣).

وبعد أن طاف الخطيبُ بجهود الرافعي، وشرع في مقايستها بجهود السابقين ومقولاتهم في الإعجاز؛ انتهى به المطاف ليؤكد أنه "إذا كان الرافعي لم يأت بجديد في هذه المقولات ... وكان مسبوqاً فيها جميعاً؛ فإنه قد بسط القول، وعمق الفكرة، ونظّم بناءها، بحيث تكاد تكون نظرية من النظريات العلمية..."^(٤).

إذا فالجديد عند الرافعي - من منظور الخطيب - هو بسط القول، وتعميق الفكرة، وتنظيم البناء. وكان د. عبد العظيم المطعني مما تناول الرافعي وتكلم عن جهوده، وانتهى إلى القول بأنه ليس من الأنصاف أن نقلل من شأن ما كتبه الرافعي، ففيه جدة وطرافة وعمق نظر، لكنه مع هذا لم يسلم من الدوران في فلك السابقين^(٥).

ومن أجود الدراسات في هذا المجال دراسة أحمد ياسوف التي ضمَّنها في كتابه (جمالية المفردة القرآنية)، وكان قد جعل اهتمام الرافعي بالجانب الإيقاعي للكلمات والحروف هو أهم معالم تميزه،

(٣) إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة

لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها (٣٢٨).

(٤) السابق (٣٤٠).

(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١٦٠/١).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٥).

(٢) إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة

لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها (٣٢٧).

وممن شارك في هذا المجال د. محمد عبد عبد المطلب في كتابه (البلاغة والأسلوبية) حيث يقول: إن الرافي "أفاد مما قدّمه ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة عن الحروف والأصوات وصلتها بالأداء الفني، وربما كانت إضافة الرافي متمثلة في ربط هذه المباحث بالنواحي النفسية بالمعنى الذي أدركه من هذا المصطلح"^(٣).

لكنه عاد ليقرر أن الرافي لم يتعمق في الجانب النفسي الفعّال في إبداع الاسلوب، مكتفياً بالعبارات الانطباعية التي لا تتجاوز السطح إلى العمق.

أما د. محمد أبو موسى فقد أثنى على جهود الرافي، وقدّرهما، وخاصة في الجانب الصوتي الايقاعي للقرآن الكريم فذكر أن للرافي في هذا الباب "دراسات جادة في الإعجاز يجب أن يتوفر لها بحث، وخاصة أن بعض المتزيديين رمى في وجهه ﷺ، مع أنه من ضعف الرأي وفسولته أن تذكر تذكر دراستهم عند ذكر دراسته، أو تذكر أسماءهم عند ذكره"^(٤).

والمح د. أبو موسى إلى أثر الرافي في دراسة محمد

(٣) البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، بيروت، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠١٠ م، (٩٣).

(٤) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د. محمد أبو محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، (١٥٠).

وجودة بحثة، وجدّة طرحه.

يقول - حول تحليل الرافي للفظة (التنذر) من سورة القمر، وسوف تأتي:- "وقد أعجب الباحثون الباحثون بتحليله، ونقلوه كما نقلناه على طول، من غير أن يضيفوا على اقتباسهم إلا الاعجاب، ومنهجه واضح من حيث الكشف عن التلاؤم بين صوتيات الآية، وهذا يدل على نظرة علمية موضوعية، إننا لا نبخس الرافي حقه، وجهوده في النظم الموسيقي للقرآن، فنحن ننظر إلى تحليله بإجلال، ففيه لفحة موسيقية تستمد ركايزها من معطيات علم التجويد إضافة إلى فن الموسيقى، والذوق الموسيقي الرفيع، فكثيراً ما تصادفنا مصطلحات تجويدية من مثل الغنة والوقف والمد والقلقلة، وهذا غير موجود لدى باحث سواه"^(١).

كما أثنى ياسوف على تفرد الرافي في هذا المجال حين يقول: "وليت الدارسين قدامى ومحدثين استفادوا - كما استفاد الرافي - من قواعد التجويد لكشف جماليات السمع بدلاً من إشعارنا بالحدس، وقلّمنا استفادوا من التجويد أو فقه اللغة، ولو فعلوا لكانوا أكثر معيارية من الاحتكام إلى الذوق وحده"^(٢).

وياسوف بهذا يضع يده على موطن تميز الرافي وطرافة طرحه، إنه يشير إلى استفادته من علم التجويد في تحليلاته ومفاتشته لأسرار الكلام.

(١) جمالية المفردة القرآنية (٢١٠).

(٢) جمالية المفردة القرآنية (٢١٢).

محمد دراز، ودراسة سيد قطب للوقع القرآني، وذكر أنها
أنها ليست ببعيدة عن ما قاله الراجعي، بل إن أنفاسه ليست
غائبة عنها^(١).

وما ذكره الشيخ أبو موسى هنا يصح أن
ينسحب على ما كتبه الزرقاني، فإنك تجد فيه
أنفاس الراجعي وروحه، ولا ريب أن الزرقاني تأثر
به، فقد ذكره في كتابه وترجم عليه.

يقول: "ونريد بجمال القرآن اللغوي تلك
الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف
حروفه وترتيب كلماته ترتيباً دونه كل ترتيب،
ونظام تعاطاه الناس في كلامهم، وبيان ذلك أنك
إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من
مخرجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف
هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات
والآيات، هذا ينقر وذاك يصفر، وهذا يخفى وذاك
يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما
هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم
التجويد، ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين
خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة
الجامعة بين اللين، والشدة، والخشونة، والرقّة،
والجهر، والخفية، على وجه دقيق محكم، وضع كلاً
من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان حتى
تألف من المجموع قالب لفظي مدهش وقشرة

سطحية أحاذة"^(٢).

كما تمثّل جمعُ من الباحثين آراءَ
الراجعي تمثّلَ موافقة وإعجاب، وذكروا
تعليقاته في مقام الرضا والقبول، وذلك
حينما يأتون على دراسة اللفظة القرآنية
وجمالياتها، فاجتمعت كلمتهم، وانعقدت
رايتهم على إضافة الراجعي في مجال
الإيقاع الصوتي، وأثره في إبراز وإثراء
المعنى القرآني^(٣).

تلك كانت جملة آراء القوم في تبيين إرث
الراجعي، ولعل الرأي الذي تطمئن له النفس
ويركن إليه داعي الانصاف أن نقول: إن

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني
(١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة
الثالثة، (٢/٣١٢، ٣١٣).

(٣) ينظر - أمثلة لا حصرًا -:

- البنية الإيقاعية وجمالياتها في القرآن، محمد حرير، مجلة التراث
العربي، دمشق، العددان ٩٩-١٠٠، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م،
(٣١٩).

- القرآن ونصوصه، عدنان زرزور، مطبعة خالد بن الوليد.
١٩٨٠، (٢٠٨).

- الإعجاز البياني للقرآن الكريم أركانه ومظاهره، د.
حسين مطاوع الترتوري، مجلة البحوث
الإسلامية، العدد ٢٣، (٢٤٦).

- نماذج من الاعجاز الصوتي في القرآن الكريم دراسة
دلالية، د. دفة بلقاسم، مجلة كلية الآداب والعلوم
الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة
الجزائر، ٢٠٠٩م، (٦).

- الظاهرة الجمالية في القرآن (٢٠٢).

(١) السابق (١٥١).

ولعلنا نورد هنا ما أورده ابن الأثير إذ يقول:
"النحاة لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا
عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة"^(١).

أما البلاغيون فكان لهم وقفاتهم البلاغية التي يبينوا
فيها أن الكلام البليغ ليس فيه زيادة يُحكم عليها بأن
دخولها كخروجها، ولذلك نَبهوا على أن القرآن
الكريم لا يحتوي على شيء زائد، وبيّنوا - كذلك
- أن النحويين إذا ذكروا الزيادة والحشو ونحو ذلك
فإن المراد به ضبط القوانين، وأن حذف هذه
الحروف لا يخل بالإعراب، ولا يخرج الكلام عن
قوانين العربية، ويبقى بعد ذلك بيان الفروق الدقيقة
بين معنى الكلام بالزيادة ومعناه بغيرها، وتلك وظيفة
البلاغي.

وقلّ أن ترى آية في كتاب الله عز وجل
تتمثل الزيادة إلا وجدت كلاماً فيها
للمفسرين، وخاصة أصحاب الاتجاه البلاغي؛
ولقد اتفقت كلمتهم أو كادت على أن
الكلام البليغ يمتنع أو يندر أن يوجد فيه الزيادة
المحضة التي يكون دخولها كخروجها، فإذا
كان هذا من شروط الكلام البليغ فهو في
القرآن أولى.

يقول الطبري: "الزيادة مما لا يليق بأن يُحمل كلام

الرافعي - رحمه الله - علم من أكابر علماء
المسلمين الذي كتبوا في الإعجاز القرآني، وهو
- بل ريب - من بين أبرز منظري الإعجاز
القرآني في العصر الحديث، نظراً لإضافته
المميزة في هذا الحقل، وخاصة في تلمس
الجانب الإيقاعي للنظم القرآني، لكن قانون
التأثر والتأثير الذي يحكم سيرورة العلوم في
رحلتها من بذرتها الأولى إلى اكتمالها شجرة
باسقة؛ سوف نراه واضحاً في معالجة الرافعي،
فقد تأثر الرافعي بأسلافه، لكنه أضاف إليهم
وجدّد، فبدأ أثره هو فيمن خلفه من الباحثين.

المبحث الثاني:

معايير جمالية المفردة القرآنية عند الرافعي

لقد تناول الرافعي الكلمة القرآنية بالدراسة
والتأمل، واعتمد على معايير جمالية ساقها لبيان
جمالية المفردة وتميزها، وتلك المعايير كالاتي:

أولاً: لا حشو ولا زيادة في القرآن الكريم

تحدّث القدماء عن (الزيادة) و(الحشو) في
الكلام، ولكنهم لا يقصدون بها أن وجود هذا
اللفظ كعدمه، أو أنه زيدٌ لغير معنى، وإنما يقصدون
أنه لو حُذف من السياق لم يكن الكلام خارجاً عن
قوانين العربية.

وكان للنحويين النصيب الأوفر من مفاتشة هذا
الباب والحديث عنه، ولكنهم قصرُوا كلامهم -
في الأعم الأغلب - على الوظيفة النحوية وصحة
التركيب، ولم يتعرضوا للوظيفة البلاغية إلا نادراً،

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير

(٦٣٧هـ -)، تحقيق: د. أحمد الحوفي،

د. بدوي طبانة، نخضة مصر، القاهرة، دون تاريخ، (٣/

ولو عُرِّيَ الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة وقد ورد مثلها في كلام العرب... وإنما جاءت لفظة (ما) ههنا تفخيماً لشأن صاحب تلك الشيمة، وتعظيماً لأمره، ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة، ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة... ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظاً زائداً لا معنى له فإما أن يكون جاهلاً بهذا القول، وإما أن يكون متسماً في دينه واعتقاده، وقول النحاة إن (ما) في هذه الآية زائدة فإنما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل، كما يسمونها في موضع آخر كافة أي أنها تكف الحرف العامل عن عمله؛ كقولك: إنما زيد قائم، فما قد كفت (إن) عن العمل في زيد، وفي الآية لم تمنع عن العمل ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل في خفض الرحمة" (٦).

ومن أمثلة ابن الأثير التي ساقها في هذا قول الحق - عز وجل - : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ (٧)، يقول: "إنه إذا نُظِرَ في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجب وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام ووجد أنه كان ثمَّ إبطاءً بعيد، وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة، ولو لم يكن ثمَّ مدة بعيدة وأمد متطاوّل لما جيء بـ (أن) بعد (لما) وقبل الفعل، بل كانت تكون الآية (فلما جاء البشير ألقاه على وجهه)،

(٦) المثل السائر (٢/٧٥، ٧٦).

(٧) سورة يوسف: (٩٦).

كلام الله عليه" (١).

كما أكّد الرازي على "أن القول بثبوت الزيادة في كلام الله خلاف الأصل" (٢).

كما تعرض ابن سنان الخفاجي لهذه المسألة فقال: "فأما زيادة (ما) في قول الله تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ ﴾ (٤)؛ فإن لها هنا تأثيراً في حسن النظم، وتمكيناً للكلام في النفس، وبعداً به عن الألفاظ المبتذلة، فعلى هذا لا يكون حشواً لا يفيد" (٥).

وتناول ابن الأثير هذه المسألة، وأفاض فيها القول، حيث رفض أن يقال إن في القرآن زائداً لا معنى له، وساق أمثلة من الآيات في مواضع مختلفة من كتابه (المثل السائر).

أورد قوله تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ ﴾، وقال عن (ما): إنها "وردت تفخيماً لأمر النعمة التي لان بها رسول الله له، وهي محض الفصاحة، ولو

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م (١٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م (١٤٦/٦).

(٣) سورة آل عمران (١٥٩).

(٤) سورة النساء (١٥٥).

(٥) سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان سنان الخفاجي الحلبي (٤٦٦هـ)، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة ومكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، (١٤٧).

في تأليفها وموقعها وسدادها؛ لم يتهيأ له ذلك" (٣).

وهذا النص الأخير الذي أورده الرافعي ذائع عند دارسي البلاغة القرآنية سَلَفًا وَخَلْفًا؛ غير أنك تجد بذرته الأولى عند ابن عطية في تفسيره، إذ يقول: "إن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولًا كاملاً، ثم تعطى لآخر نظيره، فيأخذها بقريحة جامعة، فيبدل فيها، وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتابُ الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها؛ لم يوجد" (٤).

كما اعتمد الرافعي على دليل عقلي لما نحن فيه حين نبّه على أن العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلسانهم لم يجدوا في القرآن حشوًا أو زيادة، "ولو أنهم وجدوا سبيلًا إلى نقض كلمة من القرآن لأزالوها، وأثبتوا فيه هذا الخطأ... إذ كان من المشهور عنهم مثل هذا الصنيع في انتقادهم وتصفحهم بعضهم على

وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة؛ لأنها ليست من شأنهم" (١).

وليس هذا موطن استقصاء آراء العلماء حول هذه المسألة؛ غير أنه من المفيد معرفة أطوار نموها، ومسالك القوم في تناولها، - ولو بإيجاز - ليتضح موقع الرافعي على مدرجة هذه المسألة.

يقول الرافعي: "ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية؛ استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة، أو حرف مضطرب، أو ما يجري مجرى الحشو" (٢).

يقرر الرافعي هنا أثر الحرف الصوتي في إقامة المعنى واعتبار ذلك الأثر، ومن ثم الحكم للحرف بالأصالة.

واتخذ الرافعي من هذا القول مدخلًا للحديث عن تميز القرآن الكريم وفرادته في هذا الجانب، حين ذكر أن كلام البليغ لا يخلو مما قد يوصف بالحشو والزيادة، أما مفردات القرآن الكريم فهي مستقرة في منازلها على ما اقتضته طبيعة البلاغة متمكنة مترابطة.

يقول الرافعي في هذا: "إنَّ القرآن" لو نُزِعَتْ كلمةٌ منه، أو أزيلت عن وجهها، ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها

(٣) السابق (٢٢٥).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن

غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام

عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، (٤٩/١).

(١) المثل السائر (١٤/٣).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٢٤).

بعض في التحدي والمناقضة"^(١).

وطوى الرافعي هذا الحديث منتقلاً إلى مناقشة معايير أخرى غير هذا المعيار، لكنك تجده مرة أخرى يعود ليضرب أمثلة على موضوع الزيادة والحشو، وفي هذا ما قد يؤخذ عليه فيحكم باضطراب منهجه في هذا الموضوع.

يقول: "ثم الكلمات التي يظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة، فإن فيه من ذلك أحرفاً: كقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾، وقوله ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾؛ فإن النحاة يقولون: إنَّ (ما) في الآية الأولى، و(أن) في الثانية زائدتان. أي في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم وقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حُذِفَ من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي ﷺ لقومه وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في (ما) وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يتبدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجروها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وبنه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى، والمراد بالثانية تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه؛ لبعد ما كان بين

يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي (أن) في قوله: (أن جاء)"^(٢).

وفي هذا ما يدل على تأثير الرافعي - إجمالاً - وتقليده لأسلافه من العلماء الذين تناولوا بلاغة المفردة القرآنية وتميزها.

لم يحد الرافعي عن جاذبة سابقه في هذا التناول، وخاصة ابن الأثير الذي بدا واضحاً تأثير الرافعي بطرحه، حيث إنه ساق مثالي ابن الاثير ولم يعدل لغيرهما.

وتزداد يقيناً بتأثر الرافعي بابن الأثير إذا ما وقفت وقفت على قوله في رسائله لمحمود أبي رية: "... وتفقه في البلاغة بكتاب المثل السائر، وهذا الكتاب وحده يكفل لك ملكة حسنة في الانتقاد الأدبي، وقد كنت شديداً الولوع به"^(٣).

كما أثنى الرافعي على ابن الأثير فقال: "كان من مجتهدي أئمة البلاغة في هذه الأمة، لا يسكن بعلمه إلى التقليد، وله في إدراك الأسرار البيانية حسن عجيب"^(٤).

ولكن الانصاف يتقاضانا أن نقول إن الجديد الذي لم يسبق إليه الرافعي ويصح أن يُسَلَّم له بالسبق فيه -

(٢) السابق (٢٣١).

(٣) من رسائل الرافعي التي بعث بها إلى صديقه محمود أبو رية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، (٢٦).

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٥٤).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٢٥).

وما يقال حول الأثر النفسي للأسلوب القرآني ليس جديداً، فقد أشار إليه الخطابي في رسالته القيمة المسماة (بيان إعجاز القرآن)^(٣) وتبعه العلماء من بعد.

وصفوة القول إنه يمكن إجمال موقف الرافعي مما نحن فيه كما يأتي:

١/ لم يعترض الرافعي على الزيادة الإعرابية التي يحكم بها النحاة، لكن تعميم هذه الفكرة النحوية لا يقول به إلا رجل اعتسف الكلام، وقضى فيه بغير علم.

٢/ حَكَمَ الرافعي باستحالة الزيادة في النظم القرآني لما في اعتبار حروفه بأصواتها ودلالاتها المعنوية.

٣/ قلّد الرافعي البلاغين الذين تحدثوا في هذه القضية، وبدا أثر ابن الأثير عليه أوضح، فقد أورد مثاليه في معرض معالجته لها^(٤).

٤/ يمكن الحكم بتجديد الرافعي وإضافته في أثر الحرف الصوتي في إقامة المعنى، ودوره في تصوير

(٣) بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن مُجَدِّ الخطابي (٣٨٨هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: مُجَدِّ خلف الله أحمد، د. مُجَدِّ زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، (٧٠).

(٤) ذكرت د. هيفاء فدا في معرض دفاعها عن الرافعي أنه لم يورد من أمثلة ابن الأثير إلا مثلاً واحداً وهي آية (يوسف)، والحق أن الرافعي ساق مثاليين ساقهما ابن الأثير دون أن يضيف عليهما مزيداً من الشواهد كما مر بنا. ينظر: زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم (٣٥٢).

كما ذكرت د. هيفاء عثمان فدا^(١) - هو إضافته الرائدة لأثر الحرف الصوتي في إقامة المعنى، والدقة في تصويره، ومن ثم الحكم للحرف بالأصالة، فإن مثل هذا لا تلتقطه إلا أذن شديدة الإحساس بالصوت، بالغة الدقة في استيعاب إشاراته، وجرسه، وأحواله.

هذه الاضافة تجدها في تأكيده على دور حرف المد في (ما) في الآية الأولى (فبما رحمة) الذي يؤكد معنى اللين ويفخمه، وصوت النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يغني عنها غيرها في سياقها.

وأما الغنة التي في نون (أن) في الآية الأخرى فهي تصف القلق والترقب ثم الطرب لمقدم البشير.

هذه الفاعلية للحروف التي سميت بالزائدة، والتي يبصرها المتلقي ذو الحساسية المرهفة؛ تشير إلى وجود حركة داخلية ذات حيوية متنامية، تمنح المعنى ثراءً وعمقاً.

ولعل هذه الإضافة من الرافعي التي تتلمس أثر الصوت في تصوير لواعج النفس وكوامنها؛ هي التي دعت دُجُجْدَ عبد المطلب لأن يقول: "ربما كانت كانت الدراسات النفسية التي كثر الحديث عنها في مطلع هذا القرن من الأسباب التي دفعت الرافعي إلى ترداد كلمة النفس والنفس"^(٢).

(١) زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. هيفاء عثمان عباس فدا، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، (٣٥٢).

(٢) البلاغة والاسلوبية (٩٥).

المراد، ومن هنا يُحكّم للحرف بالأصالة.

ثانياً: تمهيد السياق لاستعذاب الألفاظ:

تحدّث الراجعي على خصوصية المعاني بالألفاظ في النظم القرآني، مؤكداً على أن لها بما خصوصية لا يجزي غيرها في موضعها، بحيث تُصوّر المعاني بألفاظ بألفاظ هي أمسها رحماً بالمعنى، وأفصحها في الدلالة الدلالة على المراد، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، حتى صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها واطرادها في جملة القرآن كأنها فوق اللغة كما يقول^(١).

وقد أسلّمه هذا الحديث إلى تناول ما يصح أن نسميه: (تمهيد السياق لاستعذاب الألفاظ).

يفتح الراجعي هذا المعيار بقوله: "ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والترتيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم"^(٢).

إذاً فالتركيب في التمامه يحاكي الحروف في التمامها، وكما أن فصاحة الكلمة المفردة في حسن تجاور حروفها؛ فإن فصاحة التركيب في حسن تجاور كلماتها، وهذا هو تداعي السياق والتحامه، وهيئته لقبول جيرانه من الكلام.

وحتى تتضح رؤية الراجعي في التهيئة السياقية؛

نستمع إليه إذ يقول: "إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تُساع، وربما كانت أوكس النصيين في حظ الكلام من الحروف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عظيمًا"^(٣).

ويعقب ببيان وجه حسن مثل هذه الكلمات حين تحييء في القرآن، يقول: "ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضوع أولى بالخفة والروعة"^(٤).

إنك تجد الراجعي يقرر فكرته هذه في مسارين: الأول: أن السياق قد امتهد للكلمة طريقاً في اللسان.

والآخر: أن هذه الكلمة لم تنل مرتبة القبول فحسب؛ بل تجاوزتها إلى مراتب الاستعذاب والروعة.

ويضرب لذلك مثالا بلفظة (النُّذُر) جمع نذير، فإن فيها ثقلاً مصدره توالي الضمة في حرفي النون والذال، فضلاً عن ثقل حروف الكلمة، ثم إن وقوعها فاصلة للآية زادها ثقلاً.

أخذ الراجعي يتلمس جمالية هذه المفردة في سياقها

القرآني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا

(٣) السابق الصفحة نفسها.

(٤) السابق الصفحة نفسها.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: (٢٢٦).

(٢) السابق: (٢٢٧).

يَأْتِيهِ (١) مستفيداً من آراء أسلافه العلماء، فقد اطلع على أقوالهم وتمثلها.

ومن أولئك العلماء ابن الاثير الذي حكم بسهولة مخارج مثل الألفاظ: (النذر، سُعْر، الزُّبْر)، يقول: إِنَّ "حركة الضم في هذه الألفاظ متواليّة وليس بها من ثقل ولا كراهة" (٢)، ولكن ابن الاثير لم يبين سبب نفيه الثقل والكراهة فيها، سوى حكمه بسهولة النطق.

أما الرافي فقد تجاوز هذا القول، وأبدأ فيه وأعاد، ثم صدر عن رأي غاية في الوجيهة، وعدّ ذلك طريقاً خاصة للقرآن الكريم.

إنه يقول: "تأمل مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بَطَشْتَنَا)، وهذه الفتحات المتواليّة فيما وراء الطاء إلى واو (تَمَارُوا)، مع الفصل بالمد، كأنها تنقيل لحنة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها، كما تكون الأحماض في الأطمعة، ثم ردد نظرك في الراء من (تَمَارُوا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها فلا

تجفوا عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر)" (٣).

إنك ترى الرافي في هذه المعالجة لم يتوقف عند رأي السابقين، بل جدّد فيه وأبدع.

وجملته: (انتهى اللسان إليها من مثلها) هي أسُّ هذا المعيار ومحوره، حيث جعلت السياق كله يتداعى للتهيئة والتمهيد والإعداد لكلمة (النذر)، فهي ليست جافية عن التركيب، ولا نائية عن أخواتها.

إن تقسيم الحركات والسكنات وضبط الحروف وهذه الحركات، أحدث في القرآن ما هو فوق ما يعرفه العرب في نظم أشعارهم.

وهذا ما أشار إليه الرافي بقوله: "فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألحانا لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها" (٤).

ولا ريب أن الأصوات وإيقاعاتها (٥) أفعال

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٢٨).

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢١٤).

(٥) جاء في (اللسان): " (وقع): وَقَعَ عَلَى الشَّيْءِ، وَمِنْهُ يَقَعُ وَقَعًا وَوُقُوعًا سَقَطَ، وَوَقَعَ الشَّيْءُ مِنْ يَدِي كَذَلِكَ، غَيْرُهُ، وَوَقَعْتُ مِنْ كَذَا، وَعَنْ كَذَا وَقَعًا، وَوَقَعَ الْمَطَرُ بِالْأَرْضِ، وَلَا يُقَالُ سَقَطَ، هَذَا قَوْلُ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَقَدْ حَكَاهُ سَبِيوِيهِ فَقَالَ: سَقَطَ الْمَطَرُ مَكَانَ كَذَا فَمَكَانَ كَذَا وَمَوَاقِعُ الْغَيْثِ مَسَاقِطُهُ وَيُقَالُ وَقَعَ الشَّيْءُ مَوْقِعَهُ وَالْعَرَبُ تَقُولُ وَقَعَ

(١) سورة القمر (٣٦).

(٢) المثل السائر (١/٢٠٧).

وهذا الطريق البياني المعجز ليس إلا للأسلوب القرآني، وليس في مقدور أحد أن يكابر لمقاربة هذا الطريق، لأنه "كلما لجَّ في المكابرة لجت البلاغة في الإباء، فمثله كمن يمشي مستديراً ويحسب أنه يتقدم"^(٣).

وإنك وأنت تقرأ الرافعي تجده يكثر من إيراد التشبيهات التمثيلية البليغة، وهو من مسالكه التي ينتهجها في كتابه إيضاحاً لفكرته، وتقوية لحجته، كالتشبيه الذي معنا هنا، والذي ساقه ليؤكد به فرادة النموذج القرآني واطراده، وأنه ليس في مقدور أحد.

وكتشبيبه خفاء ثقل الضمة في سياق الكلام بخفاء الأحماض في الأطعمة.

وإذا كان الرافعي قد ركز نظرتَه على السياق المجاور لهذه اللفظة؛ فالحق أن الهيكل العام لبناء سورة القمر ومقصدها والغرض العام لها في بيان هلاك الأمم المكذبة لأنبيائها؛ يتداعى كله للتآلف والانسجام مع هذه اللفظة التي تتوافق مع جو العذاب والإهلاك والانتقام.

ومن ذلك التداعي أنك تجد فواصل السورة ختمت بحرف الراء، وهو حرف من صفاته (التكرار)، بمعنى ارتعاد طرف اللسان عند نطق بالحرف، وهو ما يتفق مع زلزلة العذاب ووقعه في النفوس، بل تكررت آية ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٢٨).

في النفس من الصور والمعاني والأفكار، وأن السرايب الخفية المضمرة أحاسيس ومشاعر لا تبعثها إلا رنة الصوت في تنظيم وتتابع، كما يقول د. محمد أبو موسى^(١).

وهو ما سماه الشيخ دراز (الجمال التوقيعي في ألفاظ القرآن الكريم)^(٢).

رَبِيعٌ بِالْأَرْضِ يَنْعُ وَفُوعاً لَأَوَّلِ مَطَرٍ يَقَعُ فِي الْحَرِيفِ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ وَلَا يُقَالُ سَقَطَ وَيُقَالُ سَمِعْتَ وَفَعَّ الْمَطَرُ وَهُوَ شَدَّةُ صَرْبِهِ الْأَرْضَ إِذَا وَبَلَ وَيُقَالُ سَمِعْتَ لِحَوَافِرِ الدَّوَابِّ وَفَعاً وَفُوعاً. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري (١١٧١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، مادة (وقع).

وفي (تهذيب اللغة): "والإيقاع أحيان الغناء، وهو أن يُوقَعَ الألحان ويُنَبِّهها، وسمي الخليل كتاباً من كتبه في ذلك المعنى: كتاب الإيقاع". تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، (باب العين والكاف ٢٦/٣).

يقول د. كمال أبو ديب: إن الإيقاع "يقوم على مبدأ التوافق الحركي والنغمي وفق انسجام، وهو بهذا أيضاً يؤول إلى تلك الفاعلية التي تنقل إلى المتلقي ذي الحساسية المرهفة الشعور بوجود حركة داخلية ذات حيوية متنامية، تمنح التابع الحركي وحدة نغمية عميقة". في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١، (٢٣٠).

(١) من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م، (٣٢٥).

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، دار دراز، دار القلم، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م (١٠٢).

على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع أولادهم البنات فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (١) تَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهمك في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية^(٤).

وهذا المواطن الثاني، وهو أن غرابتها اللفظية تناسب غرابةً معنويةً في هذه القسمة.

أما المواطن الثالث فهو جريان الأسلوب القرآني على سنن العرب في كلامها البليغ، وهو ما قال الرافعي عنه: "والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظ غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنًا على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقى له بلفظها وهيئة منطقتها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسياً، وفي أصواتها معنى

بعد كل قصة من قصص الأنبياء مع أقوامهم في السورة، وكيف كان عذاب الله يتكرر على تلك الأقوام المخالفة لمنهج الله تعالى.

ثم ضرب الرافعي لهذا المعيار مثلاً قرآنيًا آخر، وبسط القول فيه بسطاً يشهد له بعلو ذائقته في تلمس مواطن جمال المفردة القرآنية من حيث ملاءمتها لسياقها التي وردت فيها.

يقول: "وفي القرآن الكريم لفظ غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضيزى) من قوله تعالى: ﴿تَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ﴾^(١)، مع ذلك فإن حسناتها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها"^(٢).

يؤكد الرافعي على حسن هذه اللفظة الغريبة في موضعها، وأنه لا يسد مسدها سواها، ثم يشرع في بيان وجه حسناتها مع غرابتها، فيورد خمسة أسباب لجمالها.

يقول: "إن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل"^(٣).

هذا هو موطن الجمال الأول، وهو اتلاف فاصلتها مع فواصل أخواتها في السورة.

يكمل حديثه فيقول: "ثم هي في معرض الإنكار

(١) سورة النجم (٢٢).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٠).

(٣) السابق الصفحة نفسها.

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٠).

جائرة، يختار المشركون فيها لأنفسهم الذكور ويختارون فيها لله الإناث، عن طريق استخدام لفظ يدل بحروفه على قباحة مُسَمَّاه، وأمَّا اللفظية فهي مراعاة فواصل السورة في الآيات قبلها، وفي الآيات بعدها، وفي هذا إشارة إلى الصلة بين اللفظ ومدلوله، ووجود علاقة وشيجة بين طبيعة الأصوات والمواقف التي تذكرها، فالبنى الصوتية للألفاظ قائمة على الإحكام والدقة والوضوح والتكامل.

لم يكن الإيقاع في حد ذاته سبب الإبهام، وإنما في انسجامه مع ما يحمله من حمولات دلالية يسمو بها إلى أسمى درجات البيان، وعليه فالبحث في الدلالة الصوتية يستدعي بصيرة نافذة، ونظرة ثاقبة متأنية، وامتلاك حس إيماني قوي، وذوق فني جمالي يحسن الربط بين الصوت وطبيعة الحدث^(٤).

ولعل هذا ينطبق على الرافعي الذي رأى أن معيار الجمال عنده موضوعي، لا يعوّل فيه على الذوق الذي يتفاوت فيه التلقي، فالسبب كائن في نظم القرآن نفسه^(٥).

وإذا كان ابن الأثير - وغيره - قد تناولوا هذه اللفظة (ضيزى) مركزين على انسجامها مع فواصل سورتها، فإن معالجة الرافعي - كما رأينا - كانت أوسع تناولاً، وأبعد عمقاً، فقد احتشد لبيان

(٤) تجليات الدلالة الإجمالية في الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات المعاصرة - سورة التوبة نموذجاً، د. فخرية غريب قادر، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، (٢٠).

(٥) جماليات المفردة القرآنية (٢٠٩).

مثله في النفس^(١).

أما الموطن الرابع فهو الانسجام في التقطيع الصوتي الذي قال عنه: "وإن تعجب فعاجب لنظم هذه الكلمة الغريبة واثلافه على ما قبلها، إذ هي مقطعان: أحدهما مد ثقيل، والآخر مد خفيف، وقد جاءت عقب غنتين في (إذن) و(قسمة)، وأحدهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقي^(٢)"^(٣).

وختم الرافعي بخامس ملامح الجمال في هذه المفردة، وهو أن كل هذه المعاني السابق ذكرها جمعت في كلمة ذات حروف أربعة فقط.

لقد جمعت معالجة الرافعي لهذه اللفظة بين الجمالية اللفظية والجمالية المعنوية، أما المعنوية فهي الإشعار بقباحة التعامل مع الله - سبحانه وتعالى - بقسمة

(١) إعجاز القرآن البلاغة النبوية (٢٣٠).

(٢) تخرج البعض من إطلاق ألفاظ مثل: (موسيقى ونغم وألحان ونحوها) في معرض الحديث عن البلاغة القرآنية؛ حماية لجناب القرآن الكريم، وإجلالاً له، والموسيقى فن اقترن بالفسق والفجور، فكيف يشبه به القرآن العظيم، ثم إن لفظه (موسيقى) لاتينية لا أصل لها في لساننا، ينظر: خصائص القرآن الكريم، د. فهد الرومي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٢٦)، والنظم القرآني في آيات الجهاد، د. ناصر بن عبد الرحمن الخنين، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

(٣) إعجاز القرآن البلاغة النبوية (٢٣٠).
(٣٧) واستمراً آخرون إيراد مثل هذه الألفاظ في بيان بلاغة القرآن دونما تحفظ، والذي تطمئن له النفس أن العدول عن مثل هذه الألفاظ إلى مثل: (وقع اللفظة ونحوه) أولى بالاتباع، وأجدر بالاعتبار؛ تكريماً للقرآن، وإجلالاً له.

(٣) إعجاز القرآن البلاغة النبوية (٢٣٠).

ومن هذا المنطلق يقول الرافعي: "إنك ترى بعض الألفاظ لم يأت إلا مجموعاً ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها"^(٢).

ويضرب الرافعي أمثلة لهذا الإيثار مبيِّناً سر استحسان هذا دون ذاك، فاستشهد بلفظة (اللُّب)، التي لم ترد إلا مجموعة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لَلَّذِينَ أَلْبَبُوا﴾^(٣)، ولم تأت مفردة مطلقاً، وعدل في مفردها إلى لفظة (القلب)، وقد أقام الرافعي موازنة عجلى بين لفظة (اللُّب) التي لم تستعمل في الذكر الحكيم؛ ولفظتي (القلب و الجُّب) التي وردت في القرآن، مبيِّناً سبب العدول أو الاستعمال، فيقرر: "أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً، ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها: كلفظة (اللُّب) فإنها لم ترد إلا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لَلَّذِينَ أَلْبَبُوا﴾... ولم تحيء فيه مفردة، بل جاء في مكانها (القلب)، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثم فصل بين

ملامح الجمال في هذه المفردة التي ربما حكم عليها ذو عجلة بالغرابة، واستبعدها من دائرة الفصاحة والبلاغة.

ثالثاً: إيثار جمع اللفظة أو مفردها نشداناً للفصاحة:

أصل هذا المعيار أن أسلوب القرآن الكريم يتحقق فيه التناسب الصوتي، والانسجام التأليفي للمفردات القرآنية؛ وذلك حينما يوظف بعض الكلمات في صورتها المفردة في سياقات، ثم يوظفها مرة أخرى في صورتها الجمعية في سياقات أخرى، فيستجد مفرد ويُنكر جمعه، أو العكس، وما ذاك إلا مراعاة للتلوين الصوتي لهذه الكلمات، قصداً لما يراد من وراء هذا التلوين من توابع دلالية وجمالية. إذاً فنحن أمام صورتين من صور الإيثار والاصطفاء اللفظي القرآني:

الصورة الأولى: اصطفاء الجمع وإطراح مفرده.

الصورة الثانية: اصطفاء المفرد وإطراح جمعه.

وهذا الاصطفاء له عُقدة بالجمال الصوتي الذي يؤثر في القلب، ويستميل السمع، فالأمر كما قال ابن القيم الجوزية: "إن التذاذ الأذن بالصوت الطيب؛ كالتذاذ العين بالمنظر الحسن، والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة"^(١).

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي

بن بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٢).

(٣) سورة الزمر (٢١).

على ما يقوله ابن طباطبا: "علة كل حسن مقبول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب"^(٣).

وكان ابن الاثير قد تحدث عن (اللب)، وذكر أنها لا تحسن الا مجموعة، "وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة، أو مضافاً إليها، أما كونها مضافاً إليها فكقولنا: لا يعلم ذلك إلا ذو لب، وإن في ذلك لعلبة لذي لب، وعليه ورد قول جرير^(٤):

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ

قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُجَيِّنْ قَتْلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ

وَهُنَّ أَضَعْفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

وأما كونها مضافة فكقول النبي في ذكر النساء: (ما رأيتُ ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من إحدان يا معشر النساء)^(٥)، فإن كانت هذه

الحرفين يتهياً معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدّة؛ تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصباً أو رفعاً، أو جرّاً؛ فأسقطها من نظمه بته، على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أن فيه لفظة (الجب)، وهي في وزنها ونطقها، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة^(١).

لقد بيّن الرافعي أن لفظة (اللب) سقطت من نظم القرآن لهذا الثقل الذي جلبه حرف الباء المشدد المجتمع عند النطق به، والذي أفضت إليه اللام المشددة كذلك، ولا فاصل بين الحرفين يخفف من هذا الثقل في النطق.

وهذه الموانع لا تجدها في لفظة (القلب)، وأما (الجب) - وإن كانت على وزن (اللب) - فقد حسنت فيها مجاورة الجيم المضمومة للباء، ولا تجد فيها مجافاة الرفق في النطق، الذي يثقل كاهلها، وهذه المجافاة للرفق أمر يناقض الأساس الأول في تلقي ما هو جميل، أي السهولة والدماثة والاعتدال^(٢)، فالأمر

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٢).

(٢) جمالية المفردة القرآنية عند ابن الاثير، د. عيسى العاكوب، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٤٤، محرم ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، (٣١).

(٣) عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (٣٢٢ هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، (٢١).

(٤) ديوانه، من البحر البسيط، شرح تاج الدين شلق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م (٦٧٨).

(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري، الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (٢٥٦ هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، (٥٣١/٢)، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت (٦١/١).

والنظم الدقيق، الذي لا يتيسر مثله لأحد من الناس.

وهذا التأمل الذي يرغّبنا فيه الرافعي يحكمه الذوق السليم، والمهم أن ما عده الذوق السليم ثقیلاً متعسراً في الأداء فهو كذلك، والذوق السليم يتكئ في حكمه على السياق، والحركات الإعرابية، ومخارج الحروف قرباً وبُعْداً، وكلها لها أدوار غاية في الأهمية في قبول اللفظ أو إطراره.

يقول السيوطي: "وقع في القرآن ذكر الأرض فإنها مفردة ولم تجمع، بخلاف السموات؛ لثقل جمعها وهو أرضون"^(٤).

وهذا الملمح اللفظي الذي يحكم بثقل جمع (الأرض) وبُعْده عن الفصاحة والعدوية؛ يمكن أن يضاف إليه ملمحاً جمالياً معنوياً.

يقول د. عبد الفتاح لاشين: "الأرض هي دار الدنيا التي هي بالإضافة إلى الآخرة شيء قليل، كما يدخل الانسان أصبعه في اليم، والله سبحانه لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها ومحقرًا لشأنها، ولذلك لم تجمع أرض، إذ الجمع فيه معنى التعظيم"^(٥).

(٤) الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: حامد البسيوني، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، (١/٥٧٢).

(٥) صفاء الكلمة، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، طبعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، (١٢٢).

اللفظة عارية عن الجمع أو الإضافة فإنها لا تأتي حسنة، ولا تجد دليلاً على ذلك إلا مجرد الذوق الصحيح"^(١).

وأنت ترى ابن الأثير لم يبين علة اخراجه هذه اللفظة من دائرة الحُسن، واكتفى بالتعويل على الذوق، بيد أنك رأيت الرافعي يضع يده على العلة.

ومن أمثلة الرافعي في هذا الشأن (أكواب)، حيث وردت في القرآن مجموعة، ولم ترد مفردة (الكوب)، ويقرر أن سبب هذا الاصطفاء ما يلاحظ في الجمع من الرقة، وحسن التناسب بين حروفه، مالا تجده في المفرد.

كان هذا عن الصورة الأولى (اصطفاء الجمع)، وأما الصورة الثانية (اصطفاء المفرد)؛ فمَثَّل لها الرافعي بلفظة (الأرض)؛ فإنها لم ترد إلا مفردة، ولما أريدت مجموعة خرجت بصورة عبّر عنها الرافعي بقوله: إنها "خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، وهي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَبَّحَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(٢)، ولم يقل: وسبع أرضين؛ لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً"^(٣).

ويدعو الرافعي الى التأمل في هذا الوضع البياني،

(١) المثل السائر (١/٢٩٧).

(٢) سورة الطلاق (١٢).

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٣).

وهكذا تتضافر النكت اللفظية والمعنوية، إذ يسيل كل بقدره، تتجه كلها إلى مصب واحد، ثم تلتقي في غاية واحدة.

رابعاً: الجدة في إخراج معنى اللفظ المبتدل:

أصل هذا المعيار أن القرآن الكريم عدل عن ألفاظ نافرة ابتذها طول الاستعمال، فمجَّها الذوق، وكرهها السمع، ذلك أن ما يكون جديداً في زمن قد يغدو سفسافاً حين تلوكه الألسن.

ومن تلك الألفاظ المبتذلة التي عدل عنها النظم القرآني العلي لفظة (أجر)^(١)، على أنها وردت في شعر النابغة الذبياني إذ يقول^(٢):

أَوْ دُمِيَّةٍ مِنْ مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ

بُنِيَتْ بِأَجْرٍ، تُشَادُّ، وَقَرْمَدٍ

ولم يستعمل القرآن الكريم هذه اللفظة النافرة، التي تبدو مبتذلة جداً، وحين احتاج الذكر الحكيم إلى مدلولها استعاض عن هذا اللفظ ببديل، فأخرجها في غاية السمو والأناقة والروعة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ﴾^(٣).

يقول الرافعي: "ومن الألفاظ لفظة (الأجر)، وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة، وسائرهما نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن، فلما احتاج إليها لَفَظَهَا وَلَفَظَ مَرَادِفَهَا وهو (القرمد)، وكلاهما استعمله فصحاء العرب، ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بألفاظ عبارات وأرقها وأعذبها، وساقها وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا﴾ فانظر هل تجد في سر الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبداع من هذا؟... وتأمل كيف عبر عن (الأجر) بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ﴾، وانظر موقع هذه القلقلة التي هي في الدال من قوله: (فَأَوْقِدْ)، وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه، وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً^(٤).

وعبارة (فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه، وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً) تشير إلى أن الوقع الصوتي يرفرف بجناحين:

١- الإيقاع الصوتي المتولد من التشكيل الصوتي للمفردات والتراكيب.

٢- الإيقاع المتولد من التلاوة.

وانتزع النفس انتزاعاً كما عبَّر عنه - رحمه الله -

(١) الأجر أي اللبّن المحروق، واحدته طوبة، قيل إنها لغة مصرية قديمة، المعجم الوسي، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، دون تاريخ، (حرف الطاء).

(٢) ديوانه، من البحر الكامل، تحقيق وشرح علي فاعور، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،

١٩٩٣م، (٤١).

(٣) سورة القصص (٣٨).

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٣).

إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلماً؛ إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين"^(٢).

وهكذا فإن الرافعي يقرن العلة اللفظية بعلة معنوية، فلا يتكئ على الملمح اللفظي فحسب، بل تتآزر - عنده - جمالية التشكيل اللفظي مع الدلالة الإيحائية للمفردة القرآنية.

وقد توقف العلماء عند سر هذا العدول، ففي (كشاف الزمخشري) إنه عدل عن الآجر إلى (أوقد لي على الطين)؛ "لأن هذه العبارة أحسن مطابقة لفصاحة القرآن، وعلو طبقتة، وأشبه بكلام الجبابرة"^(٣).

وردّد بعض المفسرين كلام الزمخشري^(٤). أما ابن الأثير فقد قال: إنَّ: "الفتحة آجر مبتذلة جداً، وإن شئت أن تعلم شيئاً من سر الفصاحة التي

- يشير إلى تأثير المتلقي بما أحدثه النظم من تماسكه وانسجامه مع ما قبله وما بعده، وينبئ عن حسن نظم الكلمات، وغاية الإحكام والترابط، حين عدل الذكر الحكيم عن هذا اللفظ، واستعاض عنه بتعبير ساقه في موقعه المناسب.

فالبلاغة الصوتية إذاً هي كل وسيلة صوتية يتحقق فيها مفهوم البلاغة بمعناها الاصطلاحي عند البلاغيين، فلا بد من ملاحظة أمرين:

١- أن يحقق الأداء الصوتي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

٢- أن نتجاوز الإطار الصوتي بوقعه وجرسه إلى ما يحدثه من إبراز للمعنى وانتظامه وتوكيده^(١).

ولقد أحسن الرافعي وهو يتجاوز تحكيم الذوق، والتعويل عليه، فلم يرض حتى وضَعَ الهِنَاءَ موضعَ الثُّقْبِ، حين كشف لنا عن الملمح الجمالي بعينه.

إنه لم يكتف بتلمس جمالية الالفاظ، بل بحث فيما وراء اللفظ من توابع دلالية، وإيحاءات جمالية، وظلال معنوية.

يقول: "وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب، ولكن ما ترمي إليه إعجازاً آخر؛ فإنها تحقر شان فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب، أسباب السموات، فيطلع

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٤).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. (٤١٩/٣).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت -، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. (٢١٧/٢٤)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (٤٩٠/٥).

(١) البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، د. محمد إبراهيم إبراهيم شادي، الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م، (١١).

والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان.
ومن مظاهر النسق الصوتي القرآني استخدام
الأسماء الجامدة داخل الجمل، وترتيبها، ترتيباً
خاصاً، في تنسيق بديع.

يقول الرافعي: "وما يشذ في القرآن الكريم
حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز؛ حتى إنك لو
تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من
الأسماء الجامدة، وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها
شيء من دلائل الإعجاز؛ فإنك ترى إعجازها أبلغ
ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم
اسم على غيره أو تأخيرها عنه، لنظم حروفه ومكانه
من النطق في الجملة؛ أو لنكتة أخرى من نكت
المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يُوجد شيئاً فيما
ليس فيه شيء، تأمل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾^(٤)
فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد
والدم) وأثقلها (القُمَّل والضفادع)، فقدّم
(الطوفان) لمكان المدّين فيها؛ حتى يأنس اللسان
بجفتها؛ ثم الجراد وفيها كذلك مد؛ ثم جاء باللفظين
الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان، وأبعدهما في
الصوت، لمكان تلك الغنة فيه؛ ثم جيء بلفظة
(الدم) آخرًا، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفًا؛
ليسر اللسان فيها، ويستقيم لها ذوق النظم، ويتم
بها هذا الإعجاز في التركيب، وأنت فَمَهْمَا قَلْبَتْ
هذه الأسماء الخمسة فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في

(٤) سورة الأعراف (١٣٣).

تضمنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع فإنه لما جيء
فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه، ولا بلفظ القرمذ
أيضًا، ولا بلفظ الطوب"^(١).

وعلق الطاهر بن عاشور على كلام ابن الأثير
فقال: "وأظهر من كلام ابن الأثير: أن العدول إلى
الطين لأنه أخف وأفصح"^(٢).

ولا منازعة بين رأي ابن الأثير وما استظهره
الطاهر، فلفظة (آجر) مبتدلة كما يقول ابن الأثير،
ولفظة (الطين) أخف منها وأفصح كما يقول
الطاهر، والنُّكْتُ لا تتزاحم.

لقد قدّم الرافعي تفسيراً رائعاً لعدول القرآن عن
استعمال هذه اللفظة أو ما يرادفها بما استعمله
العرب في كلامهم وضمّنوه آدابهم، وإيثاره لهذا
التعبير دون غيره، فقد تبين له «في الاستخدام
القرآني لهذه الصورة وجوهاً من المعاني والأغراض
بما لم يُلمّ به ضياء الدين، ولا اقترب منه»^(٣). ولم
يسبق إليها أحد من العلماء قبل الرافعي.

خامساً: مزية النظم في الأسماء الجامدة:

إن تركيب الألفاظ وترتيبها يعطي
الكلام من القوة والضعف ما تزيد قيمة
الألفاظ الفصيحة به، ويرتفع قدرها، أو
يخط مقدارها عن درجة الفصاحة

(١) المثل السائر (١/١٨٦).

(٢) التحرير والتنوير - الطبعة التونسية، مُجد الطاهر بن عاشور
(١٣٩٣هـ)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس،
١٩٩٧م، (٢٠/١٢٣).

(٣) جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين ابن الأثير (٢٧).

وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قَدَّم منها لفظة الطوفان والجراد، وأخَّرت لفظة الدم آخرًا، وجعلت لفظة القُمَّل والضفادع في الوسط؛ ليطرق السمع أولاً الحسن من الألفاظ الخمسة وينتهي إليه آخرًا، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتي الطوفان والجراد، وأخف في الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخرًا، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية^(٢).

وأنت ترى أن معالجة الرافعي وقبله ابن الأثير تدور في فلك الملمح اللفظي الشكلي، دون تلمس الجانب المعنوي. وقد حاول بعض المعاصرين أن يتلمس السر المعنوي فتوقف عند مجيء مفردتي (القُمَّل والضفادع) متوسطةً بين سائر المفردات.

يقول د. عبدالله سرحان: إن "مجيء هاتين اللفظتين فريدتين وسط مجموعة من ألفاظ العذاب الأخرى فيه دلالة - والله أعلم - على طول مدة هذين العذابين على فرعون وقومه، وأنهما بالرغم من ضآلة حجمهما كانا أقوى إيلاماً، وأشدًا وأشدًا إيجاعًا عليهم، فالقُمَّل كانت تأتيهم على صور مختلفة، وأشكال متعددة... ولا شك فإن هذه الحشرة الصغيرة جدًا - أيًا كان المراد منها -

هذا الوضع؛ لو قَدِّمَتْ أو أَخَّرتَ لبادرك التهافت والتعثر، ولأعنتك أن تجيء منها بنظم فصيح، ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطعك دون غايتها، ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء؛ ليس يظهر أخفها من أثقلها"^(١).

هذا كلام الرافعي الذي يُستخلص منه ما يأتي:

١- إن الرافعي وهو يقرر جمالية النظم في الأسماء الجامدة تجده يمهِّد لفكرته حين ذكر أن مثل هذه الأسماء مظنة خلوها من دلائل الإعجاز.

٢- وجَّه نظره إلى الإعجاز في تلك الأسماء الكامن في طريقة نظمها، من حيث قَدِّم وأخَّر، وراعى في الجملة ما يقتضيه حسن النطق.

٣- بيَّن علل حسن النظم، ووضع يده على أسرار التقديم والتأخير، مُرجعًا ذلك إلى ما اقتضته طبيعة الأصوات من خِفَّة وشِدَّة وعُنَّة ومدود وكثرة وقِلَّة، كانت حاکمة في اختيار موقعها المناسب على مدرجة النظم.

٤- بيَّن أنَّ أي تغيير في ترتيب تلك الأسماء ينتهي بها إلى اضطراب النطق، واختلال النظم.

وهذا الكلام من الرافعي كأنه منسولٌ من كلام ابن الأثير إذ يقول: "وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غصنا منه في بحر عميق لا قرار له، فمن ذلك هذه الآية المشار إليها فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم،

(٢) المثل السائر (١/١٦٩).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٣٤-٢٣٥).

من شعر الفرزدق، فجاءت في القرآن حسنة، وفي بيت الشعر غير حسنة، وتلك اللفظة هي لفظة القُمَّل أما الآية فقوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَاعَ وَالَّذِينَ مَفْضَلْتِ ﴾ وأما البيت الشعر فقول الفرزدق^(٢):

من عَزَّه احتجرت كليبٌ عنده

زرباً كأهمُّ لَدَيْهِ القُمَّلُ

وإنما حسنت هذه اللفظة في الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت في الآية مندرجة في ضمن الكلام، ولم ينقطع الكلام عندها، وجاءت في الشعر قافية؛ أي آخرًا، انقطع الكلام عندها"^(٣).

لقد أكد الراجعي على قيمة الإيقاع الصوتي الذي تولد من حسن ترتيب هذه الأسماء، والذي روعي فيه صفات الحروف والأصوات.

وما قاله الراجعي هنا يخرج من مشكاة واحدة مع ما ذكره العلامة (دراز) وسمَّاه (الجمال التوقيعي)، إذ يقول في سفره العظيم (النبأ العظيم): "إن أول شيء أحسته الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة

(٢) ديوانه، من البحر الكامل، شرحه وضبطه علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م (٤٩٠)، ورواية الديوان للشطر الأول: من عزَّهم جحرت كليبٌ بيتهها...

(٣) المثل السائر (١/١٦٨)، من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البغدادي (١٣٨٤هـ)، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥، (٦٢).

كانت تلازمهم ليل نهار في حلهم وترحالهم في بيوتهم وخارج بيوتهم، فكان ذلك أنكى وأوجع وأشد إيلامًا، كما أن الضفادع -بحكم صغر أجسادها وقدرتها على أن تثب وتقفز من مكان إلى آخر بسرعة- كانت مصدر قلق واضطراب شديد لهم؛ لأنها لم تترك شيئًا من آنية طعامهم وشرابهم إلا وقد وقعت فيها، بل ولا يفتح أحد منهم فمه - كما يقول المفسرون- إلا قفزت إليه، فكان هذان النوعان من العذاب -والله أعلم- أشد وأنكى عليهما، ومن ثم عكس تفرد هذين اللفظين غرابة هذين الصنفين من العذاب، والله أعلم"^(١).

وفي النفس شيء من قبول هذا التعليل الذي يجعل طول مدة العذاب بهاتين المفردتين وغرابته سببًا لوردهما وسطًا في النظم، فهو تعليل لا يخلو من تكلف؛ إذ أن الاهتمام بالأمر والعناية به يقتضي تقديمه لا جعله وسطًا، أو استدعي تأخيره - أحيانًا - ليكون آخر طارق للأذن، فيتمكن من النفس فضل تمكن، أما جعله وسطًا فمما يبعد قبوله، ويتعذر الاطمئنان لاتخاذها علة معنوية راجحة.

يقول ابن الأثير: "وهنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت في آية من القرآن الكريم وفي بيت

(١) الأسرار البلاغية للفرائد القرآنية، د. عبدالله عبدالغني سرحان، مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، (١٥٣ - ١٥٤).

عني البحث بتلمس المعايير الجمالية للمفردة القرآنية كما وردت عند الرافعي، وبيان ملامح التجديد والتقليد من خلالها.

لقد اشتغل الرافعي على جانبيين مهمين في هذه المعالجة، وهما: أصوات الكلمة وعلاقة هذه الأصوات ببعضها، من ناحية، ودلالة الكلمة وقيمتها من الناحية التعبيرية والجمالية، من ناحية أخرى، وكلتا المعالجتين تجدها مسددة موفقة، ومن هنا تصبح العلاقة بين أجزاء النص علاقة تكاملية، بما يعتمل فيها من تفاعلات وعلائق، وتظهر القيمة الجمالية في قوة هذا التفاعل وتنظيمه، بعيداً عن النظرة المجتزأة.

وانتهى البحث إلى جملة من النتائج هذه أهمها:

١/ بدا واضحاً تأثر الرافعي بسابقه، وخاصة ابن الأثير الذي تمثله في جوانب من معالجته.

٢/ لم تكن معالجة الرافعي مجرد استدعاءات لآراء قال بها السابقون؛ بل وجدنا له ما يشفع له بالتجديد والابتكار، فقد كان له فهم خاص لبعض المعاني التي لم يصدر فيها عن متابعة أو تقليد.

٣/ تميزت معالجة الرافعي - بصفة عامة - بالعمق في التحليل، إذ هي لا تتسطح بل تعلو به، وقد رأيناه يولي عنايته للاستهواء الصوتي.

٤/ كثيراً ما يقرن الرافعي العلة اللفظية بعلة معنوية، فلا يتكئ على الملمح اللفظي فحسب، بل تتآزر - عنده - جمالية التشكيل اللفظي مع الدلالة الإيحائية للمفردة القرآنية، حيث انسجام الصوت مع ما يحمله من حمولة دلالية يسمو بها إلى أسمى درجات البيان.

توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آنأً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد فيها راحته العظمى^(١).

تلك الراحة العظمى التي أشار إليه (دراز) هي الاستهواء الصوتي الذي يسترعي سمعك، ويأخذ لبك، إزاء هذا التأليف الصوتي البديع في رصف الحروف والكلمات والجمل.

وقد ثمن (دراز) جهد الرافعي في هذا فقال: "من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذا المعنى علمًا، وإن شئت فارجع إلى ما كتبه الأديب الرافعي عن هذه الناحية في كتابه الموسوم (إعجاز القرآن) فقد أطل نَفْسُهُ فيها وأجاد"^(٢).

وصفوة القول إنَّ الرافعي وإن بدا متأثراً بكلام ابن الأثير إلا أنه أضاف إليه وجدد فيه، وتبين له من أسباب الجمال فيها ما لم يتهيأ لضياء الدين ابن الأثير.

وإضافة الرافعي هنا تكمن في تلمسه لجمالية الملمح الصوتي، وتوزيع هذه الإيقاعية بين الشدة واللين، والسرعة والبطء، والطول والقصر، وعدد الوقع الصوتي - في تنوعه وتشكيلاته، وفي كمياته، وكيفياته، ودرجاته - من أهم الظواهر الجمالية التي ميزت ترتيب الأسماء الجامدة في النظم القرآني، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية.

الخاتمة والنتائج:

(١) النبأ العظيم (١٠٣).

(٢) السابق (١٠٤).

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ-)، تحقيق: حامد البسيوني، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٣. الأسرار البلاغية للفرائد القرآنية، د. عبدالله عبدالغني سرحان، مركز التدبير للاستشارات التربوية والتعليمية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ، ٢٠١٢م.
٤. الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٥. الإعجاز البياني للقرآن الكريم أركانه ومظاهره، د. حسين مطاوع الترتوري، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢٣.
٦. إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، د. عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.
٧. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٨. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة أيار (مايو) ١٩٨٠م.

٥/ أولى الرافعي عناية فائقة بالجانب الإيقاعي، وتوقف يستنتق ما يتصل بظاهرة الإيقاع القرآني، انطلاقاً من حروف اللفظة وأسرارها، إلى الوقوف عند نظمها الشامل، وعدد الوقع الصوتي من أهم الظواهر الجمالية في الأسلوب القرآني، في تنوعه، وتشكيلاته، وفي كمياته، وكيفياته، ودرجاته، حسب ما يقتضيه المعنى المراد.

وصفوة القول: إن معالجة الرافعي لجمالية المفردة القرآنية لا يمكن الا التسليم لها، و الرضا عنها، إذ ليس فيها اعتساف انفعالي، بل هي معالجة مقنعة، بعيدة عن محاولة الاستدراج، واغتصاب القناعة، فهي توظيف لجمالية المفردة القرآنية، وتأصيل لأسباب الإقناع والإمتاع فيها، وهذا ما يقدره له النصفه من الباحثين.

على أنه بدا واضحاً تأثره بسابقه، وإفادته ممن مهّد له الطريق، كما أثر فيمن جاء من بعده، فكانت معالجته مثلاً للامتداد الطبيعي للنمو المعرفي، داخله في ثنائية التأثير والتأثير.

وإذا كانت مواهب الاستمداد على قدر مراتب الاستعداد؛ فلقد كان الرافعي مسكوناً بفكرة الإعجاز، جاداً في البحث عن سرّها، فقدّم لنا إضافة طيبة مقنعة، تشهد له بعلو كعبه.

رحم الله الرافعي، وأحسن إليه، جزاء ما قدّم وحصل، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا، وآله، وصحبه، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

٩. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، د. محمد إبراهيم شادي، الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
١٠. البلاغة والاسلوبية، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠١٠ م.
١١. البنية الإيقاعية وجمالياتها في القرآن، محمد حريز، مجلة التراث العربي، دمشق، العددان (٩٩، ١٠٠)، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
١٢. بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (٣٨٨هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
١٣. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨ م.
١٤. التحرير والتنوير - الطبعة التونسية، محمد الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧ م.
١٥. تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات المعاصرة سورة التوبة أمودجا، د. فخرية غريب قادر، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١ م.
١٦. تهذيب اللغة، تأليف: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.
١٧. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (٦٧١ هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
١٨. جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
١٩. الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م.
٢٠. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (٢٦١هـ)، دار الجيل بيروت، دار الأفق الجديدة، بيروت.
٢١. جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
٢٢. جمالية المفردة القرآنية عند ابن الأثير، د. عيسى العاكوب، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٤٤، محرم ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.
٢٣. حياة الرافعي، محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م.

٣٢. صفاء الكلمة، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض طبعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٣٣. الظاهرة الجمالية في القرآن، نذير حمدان، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

٣٤. عيار الشعر، أبو الحسن مُجَدَّب بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣٥. في البنية الإيقاعية للشعر العربي، د. كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١.

٣٦. القرآن ونصوصه، عدنان زرزور، مطبعة خالد بن الوليد، ١٩٨٠.

٣٧. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨ هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٨. لسان العرب، مُجَدَّب بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (٧١١ هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى.

٣٩. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧ هـ)، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، نخضة مصر، القاهرة، دون تاريخ.

٤٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو مُجَدَّب عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

٢٤. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني (١٤٢٩ هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٢٥. خصائص القرآن الكريم، د. فهد الرومي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٢٦. ديوان جرير، شرح تاج الدين شلق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

٢٧. ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢٨. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق وشرح علي فاعور، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م.

٢٩. زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. هيفاء عثمان عباس فدا، مكتبة القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

٣٠. ساعات بين الكتب، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤ م.

٣١. سر الفصاحة، أبو مُجَدَّب عبد الله بن مُجَدَّب بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (٤٦٦ هـ)، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة ومكتبة مُجَدَّب علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

٤٧. مناهل العرفان في علوم القرآن، مُحمَّد
عبدالعظيم الزرقاني (١٣٦٧هـ)، مطبعة
عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.

٤٨. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد
عبد الله البيلي البدوي (١٣٨٤هـ)، نخضه
مصر، القاهرة، ٢٠٠٥.

٤٩. من رسائل الرافعي التي بعث بها
إلى صديقه محمود أبو رية، دار المعارف،
القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩ م.

٥٠. النبأ العظيم نظرات جديدة في
القرآن، د. مُحمَّد عبد الله دراز، دار القلم،
الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، الطبعة
الثالثة، ١٩٨٨ م.

٥١. النظم القرآني في آيات الجهاد، د.
ناصر بن عبد الرحمن الحنين، مكتبة
التوبة، الرياض، الطبعة الأولى،
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

٥٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،
برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر
البقاعي (٨٨٥هـ)، تحقيق: عبد الرزاق
غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت
- ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٥٣. نماذج من الاعجاز الصوتي في القرآن
الكريم دراسة دلالية، د. دفة بلقاسم، مجلة كلية
الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مُحمَّد
خير، بسكرة الجزائر، ٢٠٠٩ م.

الأندلسي (٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام
عبد الشافي مُحمَّد، دار الكتب العلمية، لبنان،
الطبعة: الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٤١. مدارج السالكين بين منازل إياك
نعبد وإياك نستعين، مُحمَّد بن أبي بكر أيوب
الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية
(٧٥١هـ)، تحقيق: مُحمَّد حامد الفقي، دار
الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية،
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

٤٢. المعارك الأدبية، أحمد أنور سيد أحمد
الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٨٣.

٤٣. المعجم الوسيط، مجمع اللغة
العربية، دار الدعوة، دون تاريخ.

٤٤. مفاتيح الغيب، فخر الدين مُحمَّد بن
عمر التميمي الرازي الشافعي
(٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية -
بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ -
٢٠٠٠ م.

٤٥. مقالات الرافعي المجهولة في اللغة
والأدب، د. وليد عبد الماجد كساب،
كتاب المجلة العربية (٢٤٢)، الرياض،
١٤٣٧ هـ، (٩٩).

٤٦. من أسرار التعبير القرآني، دراسة
تحليلية لسورة الأحزاب، د. مُحمَّد أبو
موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة
الثانية، ١٩٩٦ م.